المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:08، العدد:03 (2024)، ص142-156

مناقب الخلفاء الفاطميين الأوائل من خلال كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بين الحقيقة والأسطورة

The virtues of the first Fatimid caliphs through the book elmajalis wa elmossayarat by Al-kadi Al-Numan between truth and myth

طارق بن زاوي
جامعة المسيلة (الجزائر)
tarek.benzaoui@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/10/03
تاريخ القبول:
2024/11/22

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الإسماعيلية
- ✓ القاضي النعمان
- ✓ المعز لدين الله
- ✓ مناقب الأئمة

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على أهم ركن من أركان العقيدة الإسماعيلية الشيعية ألا وهو ركن الإمامة، وذلك من خلال تحليل نقدي لما ورد في كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان شيخ الطائفة الأول وفقيهها الأكبر من مناقب منسوبة للخلفاء الأربعة الأوائل للدولة الفاطمية في دورها المغربي، كما يحاول المقال بيان اعتقاد الإسماعيلية في أئمتهم بما يُنقل من كتبهم لا بما يُنقل عنهم من غيرهم، مع بيان موقع هذه المناقب من الحقيقة والخرافة. ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث أنّ مناقب أئمة الطائفة ترفعهم منزلة تجعلهم وسائط بين الخالق والخلق، فلا يتحقق إيمان إلا بهم ولا نجاة إلا بالتمسك بهديهم، وهي (المناقب) في نظر مخالفيهم مجرّد أخبار تخضع لاختبار العقل الصريح والذي يضعها في خانة أقرب للخرافة منها إلى الحقيقة.

Article info

Received:
03/10/2024
Accepted:
22/11/2024

Key words:
- ✓ Ismailism
- ✓ Alkadi Al-Numan
- ✓ Al Muizz li-Din Allah
- ✓ Key words Virtues of the Imams.

Abstract:

This article aims to shed light on the most important pillar of the Ismaili Shia faith, namely the pillar of Imamate, through a critical analysis of what is stated in the book elmajalis wa elmossayarat by alkadi al-Numan, Through this work, he evoked the virtues of the first four caliphs of the Fatimid State in its Maghreb phase, The article also attempts to explain the Ismaili belief in their imams on the basis of what is transmitted from their books, and not from what is transmitted from others, And show the place of these virtues in relation to truth and myth. One of the most important results that the research reached is that the virtues of the imams of the sect raise them to a status that makes them intermediaries between the Creator and creation, so faith cannot be achieved without them. In the view of their opponents, these (virtues) are merely news that are subject to the test of the explicit mind, which places them in a position closer to superstition than to truth.

مقدمة

تعتبر الإسماعلية من أهم فرق الشيعة التي تمكنت من تأسيس كيان سياسي في بلاد المغرب الإسلامي عُرف بالدولة الفاطمية نهاية القرن الثالث الهجري، ولم يلبث أن تحوّل هذا الكيان إلى قوة سياسية كبرى في العالم الإسلامي خاصة بعد أن تمكن من التمدد نحو المشرق والوصول إلى بلاد الشام والجزيرة العربية وتهديد الخلافة العباسية في عقر دارها، وممّا يميّز الإسماعيلية كغيرها ممّن يتبنى التشيع مذهبا عقديا اعتبار الإمامة الركن الأهم في الدين يوالون من آمن به حسب اعتقادهم ويعادون غيرهم من أهل الملة الذين يخالفونهم، ولهذا تجدهم يعظّمون أئمتهم تعظيما شديدا، وهذا مبثوث في كتبهم قديمها وحديثها، ومن هذه الكتب لا سيما القديمة منها كتاب فقيه الطائفة الأول والأكبر القاضي النعمان الموسوم بالمجالس والمسايرات والذي خصصه لبيان فضائل المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين، وفي هذا المقال سنحاول عرض بعض مناقب خلفاء الدولة الفاطمية الأوائل في دورها المغربي من خلال ما ورد في هذا الكتاب.

والإشكالية الرئيسية في هذا الموضوع يمكن طرحها في التساؤل التالي: **ما هي أهم المناقب التي ذكرها القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات والتي تخص الخلفاء الفاطميين الأربعة الأوائل؟ وهل هذه المناقب تستقيم مع العقل الصريح أم أنّها في حقيقتها أقرب للخرافات والأساطير منها إلى الحقيقة؟**

وتكمن أهمية الموضوع في محاولة فهم عقيدة وفكر الإسماعلية في قضية الإمامة وكيفية تعاملهم معها، وتتبع بعض أساليب علماء المذهب في سعيهم الحثيث لترسيخ هذه العقيدة في نفوس أتباعهم، وذلك كله من خلال مصادرهم التي وصلت إلينا وتمكنا من الاطلاع عليها في ظل المنع المطلق والحصار الشديد لأتباع الإسماعيلية المفروض على كتبهم خاصة ما تعلق منها بكتب الباطن وجعلها في خانة "**سرّي للغاية**" إلى يومنا الحالي، وهذا ما من شأنه أن يضفي على تناول مثل هكذا مواضيع شيئا من الموضوعية في الطرح.

1. التعريف بالقاضي النعمان

هو القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيون التميمي المغربي، وهو عربي الأصل حسب ما تدل عليه نسبته، ويُعرَف عند المؤرخين عامة باسم القاضي النعمان تمييزًا له عن سَمِيِّه أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني المعروف (النعمان، دون تاريخ، صفحة 5)، ويسمّيه دعاة الفاطمية باسم سيدنا القاضي النعمان (الدين، 1949، صفحة 7)، وعن نشأته فالأخبار شحيحة جدّا فلم يصلنا شيء عنها تقريبا، ويذكر ابن خلكان أنّ والده أبا عبد الله محمد كان من المعمّرين، وأنّه كان يحكي أخبارًا كثيرة نفيسة حفظها وعمره أربع سنين، وأنّه توفي في رجب سنة 351هـ/662م، وصلّى عليه ولده أبو حنيفة النعمان، ودُفِن بأحد أبواب القيروان (خلكان، دون تاريخ، صفحة 416)، وفيما يتعلق بتاريخ مولد القاضي النعمان فلا نعثر في المصادر عن تاريخ محدّد، ولذلك فإنّ محققي كتاب المجالس والمسايرات لم يرجحوا تاريخا محددا لصعوبة الفصل في هذه النقطة، فقالوا إنّ تاريخ ميلاده يكون بين سنتي 283هـ/896م و290هـ/902م (النعمان، 1996، صفحة 6)، والحال نفسه بالنسبة لمكان مولده، ولا يسعنا إلا أن ننقل ما جاء في كتاب الأعلام أنّ القاضي

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

النعمان كان من أهل القيروان مولدا ومنشأً (الزركلي، 2002، صفحة 41).

وأمّا عن حياته العلمية وشيوخه وطلبه العلم فيكتنفها الغموض، وقيل إنّه كان على مذهب المالكية قبل أن يتحول إلى مذهب الشيعة الإمامية (خلكان، دون تاريخ، صفحة 416)، ومن المستبعد ما نقله ابن ثغري بردي من أنّ القاضي النعمان كان حنفيا أول أمره، ودليلنا تفسيره لهذا الادعاء بأنّ سكان الغرب يوم ذاك كانوا أحنافا في غالبهم (بردي، 1992، صفحة 11)، ويدحض هذا الرأي أنّ المشهور عن المغاربة أنّهم كانوا في أغلبهم مالكية وفيهم قليل من الحنفية، وقد نقل الدكتور محمد كامل حسين في مقدمة تحقيقه كتاب الهمة للقاضي النعمان عن الأستاذ آصف فيضي الباحث في الدراسات الإسماعلية أنّ النعمان كان إسماعيلي المذهب منذ نعومة أظفاره، وأنّه اتخذ التقية والستر خوفًا على نفسه وعلى مذهبه، وردّ عليه بأنّ هذا كلام يحتاج إلى ما يؤيده، وأضاف أنّه لم يتحدث أحد من المؤرخين الذين ذكروا النعمان عن إسماعيليته إلا بعد صلته بعبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي سنة 313هـ (النعمان، دون تاريخ، صفحة 6).

وقد ادّعى أيضا الكاتب مصطفى غالب و هو من الإسماعيليين المعاصرين استنادا إلى وثائق إسماعلية بأنّ والد القاضي النعمان كان من دعاة الإسماعيلية الذين تلقوا البذرة الإسماعلية الأولى على أيدي الداعيين الشيعيين أبي سفيان والحلواني، كما أكدّ هذا الكاتب أنّ القاضي النعمان كان إسماعيليا وُلد لأبوين إسماعيليين، وأنّ أبا عبد الله الشيعي عندما وصل إلى المغرب كان النعمان في ريعان الشباب فانتظم في صفوف الدعوة (النعمان، 1983، صفحة 10)، ولا يمكن الوثوق بهذا الكلام المرسل، فلم يذكر صاحبه أي وثيقة من تلك الوثائق التي استدل بها على مذهب القاضي النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية، ويمكن أن نضيف شيئا مهما في هذا السياق ألا وهو أنّ القاضي النعمان نفسه رغم كثرة إيراده لحوادث عاصرها أو كان قريبا منها لا سيما قبل انتصار الدعوة الإسماعلية لا نجده يتحدث إطلاقا عن نشأته ولا عن طلبه العلم ولا عن شيوخه أو أقرانه، فلو كان إسماعيليا أو نشأ في بيت إسماعيلي لا أشك إطلاقا بأنّه كان سيفاخر به أسياده ويمجدّ تاريخه المذهبي ويدوّن سيرته الأولى كما فعل مع تاريخ الدعوة والخلفاء الفاطميين الأوائل، أمّا والحال لم يكن كذلك وأهل المغرب أغلبهم على عقيدة ومذهب الإمام مالك والقيروان قاعدة ذلك كله، فلا يستبعد حينئذ أنّ القاضي النعمان أراد أن يمحو كل ما له علاقة بانتمائه العقدي والمذهبي في نشأته والمتمثل في مذهب الإمام مالك أو غيره من المذاهب السنية، ويتجنب تلك المرحلة المهمة جدا بالنسبة لأي عالم و يعتبرها مرحلة ضلالة يجب التوبة منها وعدم ذكرها.

ولمّا انتصر عبيد الله المهدي وأعلن قيام دولته دخل النعمان في خدمة المنصور بن القائم مدة تسع سنين وشهورا وأياما كما صرّح بذلك، وخلال عهد القائم واصل النعمان خدمة المنصور يجمع الكتب ويستنسخها له فيرعاه بإحسانه، فلمّا آلت الخلافة إليه استقضاه (النعمان، 1996، الصفحات 79-80)، وذلك في الفترة التي كتم فيها موت والده حتى لا يكثر الإرجاف بموت القائم، وكانت ثورة الخارجي أبي يزيد صاحب الحمار قد بلغت أشدّها مهددة الدولة الفاطمية تهديدا كبيرا جدّا.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام المنصور الفاطمي مقرّبًا منه، وبعد أن بنى عاصمته الجديدة المنصورية وانتقل إليها سنة 337هـ/648م (عذارى، 1983، صفحة 220) عينه قاضي القضاة بمدن إفريقية كلّها بعد أن استقدمه من طرابلس (النعمان، 1996، صفحة 348).

ولما ولي المعز لدين الله الخلافة سنة 341هـ/952م (الصنهاجي، 1984، صفحة 48) اشتدت صلة النعمان به، وطلب منه أن يكون في عهده كما كان في عهد أبيه المنصور بالله، ثم قويت الصلة بين الرجلين حتى أصبح النعمان جليسه ومسايره، ووضع النعمان كتابه المجالس والمسايرات جمع فيه كل ما رآه وما سمعه من إمامه المعز.

وعندما رحل المعز من إفريقية إلى مصر سنة 362هـ/972م اصطحب معه بني النعمان، وكان النعمان إذ ذاك قاضي الجيش (النعمان، دون تاريخ، صفحة 8)، وبعد أن استقر المعز بمصر وجد قائده جوهر قد استخلف على القضاء أبا طاهر الذهلي فأقرّه (خلكان، دون تاريخ، صفحة 416)، ولم يسكنه المعز القاهرة رغم صلة المودة التي كانت بينهما، فقد روى ابن حجر أنّ النعمان كان يسكن مصر أي الفسطاط ويغدو منها إلى القاهرة في كل يوم (حجر، دون تاريخ، صفحة 445).

وينقل ابن خلكان مادحا النعمان أنّه كان من أهل العلم والفقه والدين والنبل ما لا مزيد عليه، وأنّه كان في غاية الفضل، من أهل القرآن والعلم بمعانيه، وعالمًا بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفحل والمعرفة بأيام الناس، مع عقل وإنصاف (خلكان، دون تاريخ، صفحة 416)، وأمّا ابن حجر فقال إنّ في تصانيف القاضي النعمان التي صنفها على مذهب العبيديين ما يدّل على انحلاله (حجر، لسان الميزان، 2002، صفحة 286)، ولم يتردد ابن العماد الحنبلي بوصفه بالشيعي ظاهرا الزنديق باطنا، مضيفا أنّ كتبه الكثيرة تدّل على انسلاخه من الدين يبدّل فيها معاني القرآن ويحرّفها (العماد، 1989، صفحة 338).

ولم يختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة القاضي النعمان، وأنّها كانت بمصر مستهل رجب سنة 363هـ/أواخر مارس974م (خلكان، دون تاريخ، صفحة 416).

وقد ترك القاضي النعمان مؤلفات كثيرة، يقول ابن خلكان: إن النعمان ألّفَ لأهل البيت من الكتب آلافَ الأوراق بأحسن تأليف وأملح سجع، وعمل في المناقب والمثالب كتابًا حسنًا، وله ردود على المخالفين، له رد على أبي حنيفة وعلى مالك والشافعي وعلى ابن سريج، وكتاب اختلاف الفقهاء ينتصر فيه لأهل البيت، وله القصيدة الفقهية التي لقّبَها بالمنتخبة (خلكان، دون تاريخ، صفحة 416)، وسرد الأستاذ إيفانوف مؤلّفات القاضي النعمان فإذا بها أكثر من أربعين كتابًا، ومنها : دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام، كتاب الاقتصار، كتاب الإيضاح، افتتاح الدعوة، المجالس والمسايرات، كتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة، مختصر الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار، تأويل الشريعة، كتاب التوحيد والإمامة، اختلاف المذاهب، مفاتيح الحكمة، وغيرها من الكتب (النعمان، دون تاريخ، الصفحات 11-12).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2. التعريف بكتاب المجالس والمسايرات

يذكر محققو هذا الكتاب في مقدمة التحقيق أنّ عنوان الكتاب المدوّن على نسخة مكتبة الآصفية بمدينة حيدر آباد الباكستانية حاليا جاء بهذه الصورة "**المجالس والمسايرات في تاريخ الإسماعلية وعقائدهم**"، لكنهم رجحوا العنوان الوارد في كتاب المجدوع الإسماعيلي "**المجالس والمسايرات والمواقف والتوقيعات**" (المجدوع، 1966، صفحة 52)، ووجه ترجيحهم هذا العنوان أنّه أكثر مطابقة لمحتوى الكتاب ومادته (النعمان، 1996، صفحة 17). والكتاب ذو أهمية وثائقية كبيرة، فكاتبه كان معاصرا للأحداث شاهدا عليها ومدوّنا لها، كما أنّه حرص حرصا شديدا على تسجيل كلام المعز في مجالسه مباشرة بعد كل جلسة بلفظه ما استطاع، فصارت بذلك الرواية كما وصفها كاتبها من أصدق الحديث وأصحّ النقل (النعمان، 1996، صفحة 302) عن سيدّه المعز لدين الله، وممّا زاد الكتاب تشريفا ورفعة حسب مؤلفه مراجعة المعز وتزكيته له، فقد خاطب النعمان قائلا: "**فإنّ الله يجزيك بنيتك ولا يؤاخذك بنسيانك، والله ما جمع عن آبائنا قبلك أحد مثل هذا من جمعك، وإنّه لكتاب قلما يكون مثله من الكتب**" (النعمان، 1996، صفحة 302).

وفيما يتعلق بمحتوى الكتاب فقد تناول فيه مؤلفه جزءا مهما من تاريخ الدولة الفاطمية في طورها المغربي، وهي المرحلة التي عاش أحداثها القاضي النعمان ودوّن أحداثها، وتنوعت مادته من تاريخ وسيرة ذاتية وعقيدة وغير ذلك، ففي التاريخ أورد القاضي النعمان أخبارا كثيرة عن الخلفاء العبيديين الأربعة الأوائل المهدي والقائم والمنصور والمعز الذي كان له النصيب الأوفر من الأخبار في هذا المصنف، كما تحدّث فيه صاحبه عن ثورة صاحب الحمار أيام القائم والمنصور، ونقل جزءا من الصراع بين العبيديين في المغرب والأمويين في الأندلس، وتناول أيضا الصراع بين الروم والمعز، وفي العقيدة فقد تحدّث القاضي النعمان عن أهم مسألة عقدية عند الشيعة عموما والإسماعلية خصوصا ألا وهي عقيدة الإمامة، وتكلم عن قضية النسب الفاطمي، ودافع عن أئمته من خلال تبرئتهم ممّا نسبه إليهم بعض الدعاة من أمور لا تتفق مع عقيدة الإسلام، وفي الوقت ذاته نسب إليهم أشياء كثيرة تناقض ذلك، وفي مجال الصراع المذهبي فقد نقل لنا جانبا من محاولات الإسماعلية المتكررة من أجل بسط مذهبهم العقدي على سكان المجتمع المالكي السني والذين يصفهم النعمان بالعامة، كما ظهر في الكتاب فضل قبيلة كتامة البربرية في انتصار الدعوة وتأسيس الدولة واعتراف المعز بذلك.

ولم يأل النعمان جهدا في حفظ أقول المعز وتسجيلها في حينها بدقة كبيرة معتذرا عمّا شابها من تقصير أو نسيان في الضبط، وقد لا نجد مثل هذا الجهد والإخلاص في النقل من كاتب آخر ممّن اهتم بتدوين سير الملوك والأمراء، ولا يفوتنا أن نذكّر أنّ الكتاب أيضا يحوي أخبارا مهمة في حياة وسيرة القاضي النعمان نفسه، وتظهر فيه المكانة العالية التي تبوأها في أعلى هرم السلطة.

3. مناقب الخلفاء العبيدين في كتاب المجالس والمسايرات

1.3. الإمامة عند الإسماعلية

تعتقد الشيعة بسائر فرقها أنّ الإمامة هي ركن الدين الأول فلا إيمان يتحقق للمسلم دون الاعتقاد بها،

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

>وعندهم أنّها ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة، بل هي قضية أصولية لا يجوز للرسل إغفالها وإهمالها ولا تفويضها للعامة (الشهرستاني، 1993، صفحة 169)، وانقسمت الشيعة إلى فرق كثيرة ولعل أهمها فرقة الإسماعيلية التي تنسب إليها الدولة الفاطمية مذهبيا، والإسماعيلية يثبتون الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق بعد والده، ثمّ اختلفوا في موته في حياة أبيه، فمنهم من قال بموته ومنهم من قال بأنّه حي لم يمت، ثم قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل الإمام السابع التام، ثمّ أُبتدئ منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون في البلاد سرّا ويظهرون الدعاة جهرا، ثمّ بعد الأئمة المستورين كان ظهور المهدي والقائم وأولادهم نصا بعد نص، وأشهر ألقاب الإسماعلية الباطنية لأنّهم يقولون أنّ لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا (الشهرستاني، 1993، صفحة 226)، ويؤكد هذا الكلام ما ورد في كتاب المجالس والمسايرات في مواضع كثيرة يثبت فيها مؤلفه عقيدة القول بالظاهر والباطن، ومنها أنّ المعز له بحر زاخر من الباطن (النعمان، 1996، صفحة 86)، وقال عنه أيضا: "**أما علم الباطن ووجهه فهو البحر الذي لا تخاض لجته ولا يدرك آخره**" (النعمان، 1996، صفحة 148).

وهذا الكتاب يعتبر من كتب الظاهر التي تكتب لعامة الناس سواء كانوا إسماعيليين أو غيرهم كي لا يطلع أحد على حقيقة المذهب وأفكاره وتعاليمه (ظهير، دون تاريخ، صفحة 268)، ورغم ذلك فقد وردت فيه بعض العقائد الباطنية التي دلت بما لا يدع مجالا للشك على العلاقة الوطيدة بين الباطنية والإسماعلية، ولا يفوتنا أن نذكر أنّ الطبع الغالب على كتب النعمان أنّها كتب الظاهر، وحتى الكتب التي ألفها في التأويل يغلب عليها التقية والتحرز والاحتياط الشديد (ظهير، دون تاريخ، صفحة 699).

والقاضي النعمان عند الإسماعلية يمثل المرجعية العلمية الأولى والأساسية في الفقه الإسماعيلي، ويروي في كتابه دعائم الإسلام عن أبي جعفر محمد بن علي أنّه قال: بني الإسلام على سبع دعائم، الولاية وهي أفضلها وبها وبالولي يوصل إلى معرفتها والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد (النعمان، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، 1963، صفحة 2)، وميزة هذا المفكر الإسماعيلي تكمن في سعيه إلى صوغ العقائد الباطنية في قالب عربي إسلامي يلائم الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي ظهرت فيه الدولة الفاطمية (الطاهري، 2011، صفحة 125)، لذلك كان من المنطقي أن نعرض بعض أقواله في الأئمة حتى تتضح لنا العقيدة الاسماعيلية في الإمامة بشكل واضح جلي، فيروي النعمان عن جعفر الصادق قوله: "**فنحن باب الله وحجته وأمناؤه على خلقه وحفظة سرّه ومستودع علمه**" (النعمان، دون تاريخ، صفحة 79)، والأئمة عنده أبواب الله وأسبابه والوسائط بينه وبين عباده (النعمان، دون تاريخ، صفحة 81).

وبلغ الغلو في أصل الإمامة عند الإسماعلية أقصاه حيث اعتبروا رتبتها أعظم قدرا وأفضل منزلة من النبوة والرسالة، فأطلقوا على النبوة رتبة الاستيداع وعلى الإمامة والوصاية رتبة الاستقرار، ولا شك بأفضلية الرتبة الثانية على الأولى حسب أصول الإسماعلية وقواعدها (السلومي، 2001، صفحة 417)، ويزيد هذا الأمر تأكيدا ما استنتجه باحث معاصر في فكر القاضي النعمان وعقيدته بعد دراسته لكثير من مؤلفاته المتداولة حاليا أنّ الإسماعلية تنظر إلى الإمامة على اعتبارها جزءا من النبوة لا يمكن فصلها عنها، فبين الإمامة والنبوة مساحات

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تداخل كثيرة تبدو فيها الإمامة مؤسسة دينية لإنتاج الأنبياء والرسل والنقباء والدعاة، وهي بالتالي الأكثر حضورا واستمرارا في التاريخ والأقدر على تمثيل الإله وتجسيده، لذلك لا بد أن يكون الإمام معصوما ممنوعا من الظلم عالما بظاهر الدين وباطنه، لأنّه منصوب للناس ليكون دليلا على الله ومرجعا إليه يعود إليه الناس لمعرفة أمور دينهم ودنياهم (الطاهري، 2011، صفحة 177).

ومن مظاهر الغلو أيضا في عقيدة الإمامة عند الإسماعلية ما قرّره القاضي النعمان من حكمه على المسلم ببطلان جميع عباداته التي تقرّب بها إلى الله تعالى طول عمره مهما بلغت إذا لم يعتقد بإمامة من سمّاهم أولياء الله وأوصياء رسوله (النعمان، دون تاريخ، صفحة 47).

ونستخلص من هذا كله أنّ المذهبي الإسماعيلي خاصة والشيعي عامة ينحو في قضية الإمامة منحى غال جدا، ويرفعون الأئمة مراتب عليا ويبنون على ذلك أحكاما متطرفة جدا ضد مخالفيهم لا سيما المالكية السنة الذين واجهوا المد الإسماعيلي في بلاد المغرب.

2.3. مناقب عبيد الله المهدي

لقد أضفى القاضي النعمان على الأئمة الذين عاصرهم طابعا أسطوريا، فقد نسب إليهم صفات تخرج بهم عن حد البشرية، وقد تأكدّ هذا المنزع حين انبرى النعمان يؤول الولاية بحثا عن معانيها الباطنية، فقد تبين من خلال السياق التأويلي كيف أصبحت الإمامة محور التاريخ الديني كله، وكيف منح الإمام من خلال هذا المنظور صفات ترتقي به إلى درجات فوق طبيعية (الطاهري، 2011، الصفحات 151-152)، وقد روى القاضي النعمان حديثا سمعه من المعز في فضل الأئمة، وأنّ الله سبحانه قد ذكرهم قبل خلق آدم، وأنّ هذه الدعوى خاصة بهم لا يدّعيها أحد معهم وهي من فضائلهم الخاصة بهم (النعمان، 1996، صفحة 210)، وأنّ الأئمة ضامنون لأتباعهم الجنة، فعن جعفر الصادق أنّه قال لشيعته: "**إنا والله بتوليكم لنا كلكم من أهل الجنة، وإنا لضامنون ذلك لكم عن الله**" (النعمان، 1996، صفحة 402)، ونسب فقيه الإسماعلية الأكبر للأئمة علم الغيب فهم يعلمون ما يكون قبل أن يكون (النعمان، 1996، صفحة 404)، وفي هذا السياق الخرافي الأسطوري يحدثنا النعمان عن بناء المهدي عاصمته الجديدة المهدية، وهذه المدينة عند الإسماعيليين هي المأثور ذكرها في الكتب المعروفة عندهم بالبيضاء، وهي التي قيل إنّ الدجال لا يدخلها فكانت حسبهم كما جاءت الروايات فيها، وكانت من أعجب الأثار ورأى الناس معجزات ما هيأ الله في بنائها (النعمان، 1986، صفحة 327).

وأنّ سبب بنائها التحصن من فتنة أبي يزيد الذي سيحاصر المدينة ويقف عند سورها وهذا قبل ظهوره بسنوات، والذي تنبأ بعدم دخول الدجال إليها والمقصود به صاحب الحمار الذي جاءت فيه الروايات وأتى فيه الخبر حسب القاضي النعمان هو عبيد الله المهدي (النعمان، 1986، صفحة 332)، وأنّ المهدي تنبأ أيضا بأنّ نهاية الفتنة سيكون في زمن المنصور (النعمان، 1996، صفحة 542)، ومن علم عبيد الله المهدي الغيب أيضا أنّه أنهض قرة عينه ومهجة نفسه القائم إلى مصر وهو عالم بأنّها لا تفتح على يديه، ولكنّه أراد تأكيد حجة الله عليهم بدعوته (النعمان، 1996، صفحة 476)، هكذا صوّر لنا القاضي النعمان جزءا من مناقب أول الخلفاء

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الفاطميين عبيد الله المهدي، وهي رجم بالغيب لا يكاد تصديقها يجاوز من نُسبت إليه فضلا عمّن جاء بعده خاصة ممّن خالف عقيدة الإسماعيلية في الإمامة و تعظيم الأئمة.

3.3.مناقب الخليفة القائم

لم يمّدنا القاضي النعمان بمناقب تذكر عن القائم ثاني الخلفاء الفاطميين، ولعلّ سبب ذلك أنّ عهد القائم كان من أشد المراحل صعوبة في تاريخ الدولة الفاطمية في طورها المغربي، فقد أوشكت الدولة على السقوط بعد قيام ثورة صاحب الحمار أبي يزيد، ومات القائم وأبو يزيد يسيطر على أجزاء واسعة في بلاد المغرب التي كانت خاضعة للسلطة الفاطمية، فليس من المنطقي أن تُنسب نبوءات غيبية وخوارق وأساطير وبطولات لإمام فشل في الحفاظ على قوة كيانه السياسي الذي ورثه عن أبيه، بل نقل النعمان رواية عن المنصور تصور القائم بولي العهد المتخاذل الذي لا يمتثل لأوامر الخليفة، فعندما أصدر عبيد الله أوامره للقائم بغزو مصر تساءل الأخير عن الفائدة من هذا الغزو وقد سيطر الفاطميون على المغرب وهذا يكفيهم، فردّ عليه عبيد الله قائلا: "**إن ثقل عليك ما أمرتك به خرجت له بنفسي**" (النعمان، 1996، صفحة 252).

ويقول القاضي النعمان إنّ القائم ثاني الخلفاء الفاطميين كان يخبر قومه بأيام ومدة ووقت أبي يزيد الخارج عليه (النعمان، 1986، صفحة 33)، ثمّ يخبرنا أنّ القائم يعلم الغيب بشهادة حفيده المعز الذي قال: "**إنّ القائم بأمر الله كان يأخذني وأنا في سن الأطفال فيضمني إلى صدره ويقبّل ما بين عيني ويقول: أنت أبو تميم ويحمد الله، وما كانت أدري يومئذ ما يريد بذلك، ثمّ قال: أفمن أودعه الله علم ما يكون يُجهل فضله أو يُشكل أمره؟ لو أنّ قائلا قال إنّ هذه النطفة يكون منها بشر من حاله كيت وكيت فكان ذلك من قوله إذا كان ما يبهر، فكيف بمن علّمه الله علم ما يكون مما لم يكن بعد**" (النعمان، 1996، صفحة 404).

ومن مناقب القائم القليلة التي وردت في كتاب المجاس والمسايرات الرواية التي تقول إنّه وأبيه المنصور وحفيده المعز اتفقوا دون سابق مشورة بينهم على تعيين داع لهم في أحد جزائر المشرق (النعمان،1996، الصفحات 265-266).

4.3.مناقب الخليفة المنصور

بعد وفاة القائم تولى ابنه المنصور الخلافة سنة 334هـ (الصنهاجي، 1984، صفحة 32)، وواجه ثورة صاحب الحمار بحزم وشدّة إلى أن تمكن منه، فقبض عليه حيا ثم قتله وأمر بسلخه وصلبه، وكان ذلك سنة 336هـ/947م (عذارى، 1983، صفحة 220)، وكما ادّعى النعمان أنّ عبيد الله المهدي كان يعلم كثيرا من الغيب فلا غرابة أن يكون للخليفة المنصور أيضا حظه من ذلك العلم، والقاضي النعمان يروي رؤيا رآها المنصور في فتنة أبي يزيد وأنّ انفراجها سيكون على يديه (النعمان، 1996، صفحة 113)، وكان عند خروجه للقتال يتقلد سيف ذي الفقار الذي زعم الفاطميون أنّه سيف رسول الله ﷺ قد ردّه الله إليهم بعد كان في حوزة بني العباس، ولم يكن هذا السيف يفارق المنصور وكان من أهم أسباب النصر على أبي يزيد، ونقل النعمان شهادة بعض من حضر قتال المنصور الذين قالوا إنّ المنصور إذا رفع يده وحمل على ناحية من نواحي العدو انهزموا

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بين يديه كأنّما غشيتهم صاعقة من السماء (النعمان، المجالس والمسايرات، 1996، الصفحات 114-115)، ومن مناقب المنصور التي وردت في كتاب المجالس في مواضع كثيرة نعيه لنفسه، وقد جاءت أغلب روايات النعي هذه عن المعز، فالمنصور يقول للمعز عند مرضه: "**هيهات قد والله قرب الأجل وأزف الوقت**"، ولم يطل به الوقت حتى مات (النعمان، 1996، صفحة 130)، وزعم النعمان أنّ بكاء المنصور بين يدي المعز دليل على قرب أجله (النعمان، 1996، صفحة 267)، وفي آخر خطبة خطبها المنصور في عيد الفطر قبل وفاته كتب بخطّه: "**وقد مضت ليالي الشهر وأيامه وحان انقضاء العمر وانصرامه**"، فقال المعز مفسرا هذه المقالة: "**أراد والله أن ينعي إلينا نفسه**" (النعمان، 1996، صفحة 240).

وبهذه المناقب المنسوبة للمنصور ولمن قبله من الخلفاء يرسّخ القاضي النعمان معتقداته الباطنية، فالأئمة يختصون بعلم الكتاب ما ظهر منه وما خفي، ثم تفرّع عن ذلك القول بتميزهم عن سائر الناس لعلمهم بخفايا الأمور، إلى أن ظهر القول بأنّهم يعلمون ضربا من الغيب يكون لهم بالرؤيا والإشراف على الموت (الطاهري، 2011، صفحة 164).

وهذه الروايات في أغلبها يسيطر عليها الطابع الأسطوري الخرافي، وهي كلها روايات تدخل في إطار حملة دعائية منظمة تنظيما دقيقا هدفها الأول والأخير إضفاء الشرعية الدينية على خلفاء بني عبيد.

5.3. مناقب المعز لدين الله

لقد نال المعز لدين الله في كتاب المجالس والمسايرات ما لم ينله غيره من الملوك و الأمراء ممّن أُلفت فيهم السير والتراجم، فالنعمان كان يبادر إلى تسجيل كلام المعز بلفظه كما ورد عنه في مجالسه، وإن تعذّر حفظ الكلام فإنّه يورده بمعناه، وقارن ما يقوم به من رواية عن المعز بما كان الصحابة يروونه عن ﷺ بإيراد المعنى دون اللفظ، وأورد رواية عن بعض الصحابة لمّا سُئل أن يحدّث بحديث سمعه من لفظ رسول الله ﷺ لا يغادر منه شيئا ولا يحيله عن معناه ولا يزيد فيه ولا ينقص منه، فقال الصحابي: "**حسبي وغيري من الحديث عن رسول الله ﷺ إذا نحن جئنا بالمعنى**"، ثمّ قال بعدها النعمان: "**وكذلك أقول فيما أحيله عن أمير المؤمنين**" (النعمان، 1996، صفحة 225)، وهذا ما يدّل على ما ذكرناه آنفا على تعظيم الشيعة الإسماعلية لأئمتهم ورفعهم مراتب الأنبياء والمرسلين، وهذا ما قرّره القاضي النعمان في كتبه من غير قصد أو بقصد.

وفي هذا السياق يروي النعمان عن المعز زعمه أنّ عند الأئمة علم ما يُطلب يقصد بذلك علم الغيب، وهذا يدّل عليه حديثا نسبه المعز لعلي بن أبي طالب ونصّه: "**لا تسألوني عن علم ما كان وما يكون وعن علم ما لا تعلمون إلا أخبرتكم به**"، ثمّ نزل النعمان بالحديث إلى جعفر الصادق فنسب إليه أيضا قوله: "**إنّ العلم الذي نزل به أدم لم يُرفع وإنّه يُتوارث وهو فينا نتوارثه**" (النعمان، 1996، صفحة 272)، فالعلم كلّه عند الأئمة ولا سبيل إلى تحصيل العلم من غير طريقهم، فالمعز لدين الله يدّعي أنّ أبعد الناس عن العلم وأقربهم من الجهل من تعاطى علما لم يثبّته عنّا وادّعى حكمة لم يأخذها منّا (النعمان، 1996، صفحة 276).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ومن مناقب المعز بلوغه أعلى درجات العلم، والغريب في علمه الواسع أنّه لم يحصّله من الشيوخ، فلا نعلم له مؤدبا عالما فنقول أفاد منه، ولا بعد ذلك من جليس ولا مصاحب كذلك يحسن شيئا نقول أفاد عنه، ولا كانت له رحلة ولا طلب، ولا نراه يفيد شيئا من دراسة الكتب يوازي جزء لا يتجزأ مما نراه فيه ونجده من فنون العلم والحكمة لديه (النعمان، 1996، صفحة 148).

فعلم المعز لم يتحصل عليه بطرقه المعروفة من حفظ ونصب ورحلة وجلوس عند المشايخ والعلماء، فأئمة الإسماعلية الباطنية مستغنون عن ذلك كله، فهذا المعز الذي لم يطلب العلم قط في حياته لا يجاريه حسب النعمان أحد ممن اكتهل وخرف من الطلب، ورحل وكتب ولقي العلماء وأخذ عن الحكماء وأكب الدهر الطويل على الدراسة (النعمان، 1996، صفحة 148).

ورغم ذلك يصر القاضي النعمان على تصنيفه في العلماء الأعلام البارعين في كل الفنون والعلوم فيقول: "**وجدناه قد نظر في كل فن وبرع في كل علم، وإن تكلم في فن منها أربى على المتكلمين وكان فيه نسيج وحده في العالمين، أما علم الباطن ووجهه فهو البحر الذي لا تخاض لجته ولا يدرك آخره، وأما القول في التوحيد والرد على أهل البدع والملحدين فهو واحده وعلمه ومناره وعمدته، وأما الفقه والحلال والحرام ومسائل الفتيا والأحكـام فذلك مجاله وميدانه وصنعته وديدنه، وأما الطب والهندسة وعلوم النجوم والفلسفة فأهل النفاد في كل فن في ذلك عيال عليه، ويخترع لهم في كل من الصنائع ويبدع فيه البدائع من دقائق معانيه وما تحار أذهانهم فيه فيما لو أخذت في تقصي معانيه ووصف ما آثره الله عز وجل به وجعله من العلم والحكمة فيه لقطع هذا الكتاب عما بنيته عليه**" (النعمان، 1996، صفحة 148).

فالعلوم كلها قد أحاط بها المعز عقلية ونقلية، وهي مما آثره الله به حسب ادعاءات القاضي النعمان، وهذا كله كلام مجاف للحقيقة، والأغرب من هذا كلّه أنّ أغلب علم المعز يكون تحصيله ساعة كسله وسأمه وفتوره مستجيبا في ذلك لوصية أبيه المنصور، حيث ينقل النعمان عن المعز لدين الله قوله: "**سمعت المنصور يقـول في بعض ما أوصاني به: متى أردت تأليف كتاب أو تعقبه أو النظر في أمر تريد إحكامه فتوخ لذلك حين السآمة والكسل والفتور، فإنّ أنفس أولياء الله أقوى ما تكون إذا ضعفت أبدانهم وفترت وكلّت قواهم، وكذلك يكون في حين مفارقة أجسامهم ووقت انتقالهم من الدنيا لعلمها بفضل ما تصير إليه، وذلك على خلاف ما عليه أهل الدنيا لأنّ أنفسهم أقوى ما تكون إذا صحت أبدانهم ووقفوا بالمقام في دنياهم، ومتى ضعفت أبدانهم ضعفت أنفسهم لأنّ أنفسهم خدم أبدانهم ومتعلقة بدنياهم**" (النعمان، 1996، صفحة 430).

وهذه من أعجب الوصايا في طلب العلم، **فكيف يطلب العلم من ضعفت همته وتسلل الفتور والسآمة إلى نفسه؟ وكيف يقدر من هذه حاله على مطالعـة الكتب والنظـر فيها فضلا عن تعقبها؟**

وقد حدث أن تمكن المعز من ترجمة كتاب دون تعب بل في فراشه هاجعا، فقد ورث عن أبيه المنصور كتابا لم يعلم ترجمته، ومكث أياما يتدبره واغتم بسبب ذلك غمّا شديدا، وفي ليلة بعد هجوعه رأى أباه المنصور فأخذ الكتاب وقال له هذه ترجمته، ولم يخبر المعز أباه وكتم الأمر، وبعد مدة سأل المنصورُ المعزَّ عن ترجمة

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الكتاب فأخبره بالمنام فضمّه المنصور وبكى، وزعم المعز أنّ ذلك كان نعيا للمنصور، وقد حدث أن كانت المصيبة به عن قريب أي وفاة المنصور كما قال المعز (النعمان، 1996، صفحة 131).

ومن مناقب المعز والمعدودة في باب المعجزات عند أتباعه أنّ الجراد انتشر في البلدان وقد قحط المطر وأجدبت الأرض وتغيّر الزرع وذبل وأشفى على الهلكة، فخرج المعز وكان قبل ذلك تردد في الخروج خشية أن يتطيَّر بهم الناس، فكان كلما نزل منزلا نزل الغيث بنزوله وجاء منه ما يجاوز الرواء وأحيى الزرع، فإذا ارتحل من ذلك المنزل ارتفع المطر وصار في صحو حتى ينزل بالمنزل الذي يليه وهو في القحط والجدب على مثل ما كان عليه المنزل قبله، فساعة حلوله ينشأ السحاب ويأتي بالغيث الوابل ما دام مقيما حتى يرتحل، فلم يزل كذلك مدة مسيره وحلوله حتى انصرف، فغنمت الزرع والثمار وكملت ودفعت الآفة عنها وأمنت، ورأى الناس من بركة أثره ويمن سفره ما بهرهم وعظم أمره عندهم (النعمان، المجالس والمسايرات، 1996، صفحة 470).

ولأئمة الإسماعلية القدرة على شفاء المرضى بشرط صحة الاعتقاد فيهم والإيمان بأنّهم من الأولياء الذين يتوسل الناس بهم ويتبركون بآثارهم وما يخرج من الأرض من ضياعهم، فقد روى النعمان أنّ رسول المعز أخرج إليه مع جماعة من الأولياء طبقا فيه تفاح جليل، وأخبرهم أنّ هذا التفاح جاء من المشرق من البلد الذي خرج منه عبيد الله وابنه القائم أي من أرض سلمية في بلاد الشام من الضياع التي به لهما، ودفع إلى كل واحد منهم شيئا منه وقال لهم تبركوا به، ومن العجب أنّ في ليلته تلك عرض للنعمان وجع في جانبه الأيسر وتزايد عليه حتى خاف الهلاك، ثم رأى أن لا شيء أنفع من التداوي بالتفاح المبارك الذي صار إليه عن ولي الله، وفعلا فقد حصل الشفاء بسرعة كبيرة جدا، ويقسم النعمان بالله أنّه ما وصل التفاح إلى جوفه حتى سكن الألم دفعة واحدة، وعندما أخبر المعز بما حصل له زاده بصيرة واعتقادا بقدسية الأئمة وأنّه من توسل بهم كانوا خير وسيلة بشرط صحة الاعتقاد فيهم وبفضلهم، ثمّ أكدّ المعز للنعمان أنّ للأئمة القدرة على شفاء الجذماء و البُرصاء والعميان قائلا: "**والله لو أتانا الجذماء والبرصاء والعميان يستشفون الله بنا وقد أحسنوا ظنّهم وصدقت في ذلك نياتهم ولم يشبهم في ذلك شك لشفوا**" (النعمان، 1996، صفحة 291).

ومن كرامات المعز لدين الله أنّه لما أراد بناء قصره المعروف بقصر البحر بالمنصورية كان يحتاج أن يكون الابتداء بعد شهر، فرأى في نومه بطليموس الفلكي المنجم الإغريقي وأخبر المعز أنّه على توحيد الله وأنّه صار إلى خير بحمد الله، وحدّد له بطليموس هذا يوم بداية العمل لبناء قصره، ولم يتردد المعز في الشروع في البناء في ذلك اليوم بعد أن نظر في قول أهل النجوم الذين لم يروا يوما أحسن منه (النعمان، 1996، صفحة 325).

وكتاب القاضي النعمان المجالس والمسايرات فيه الكثير من هذه الروايات الأسطورية التي تهدف إلى تقديس أئمة الاسماعلية ورفع مكانتهم عند أتباعهم، وبالتالي فلهذه الأخبار التي يتشابك فيها التاريخي والأسطوري وظيفتان متلازمتان وهما إنتاج الأسطورة من التاريخ ثمّ تحويلها إلى دليل البرهنة على صحة العقيدة، بل إنّ العلاقة بين التاريخ والأسطورة والعقيدة عند النعمان تأخذ أشكالا أخرى، فتكون العقيدة في الوقت نفسه هي الوسيلة

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والغاية، بها يتم تحويل التاريخ إلى أسطورة ولأجلها يكون ذلك، وسواء كان المنطلق هو الأسطورة أو العقيدة فالنتيجة واحدة، وهي أنّ السلطة تستمد شرعيتها من السماء والأرض، حينها يتحول المؤرخ إلى مبدع أساطير (الطاهري، 2011، صفحة 143).

ولا يفوتنا أن نذكر أنّ المعز يكون ضامنا الجنة لبعض العباد، وهذا الضمان قد ظفر به القاضي النعمان من سيّده، فلا عجب حينئذ أن يُسوِّد الصحف الكثيرة في ذكر كرامات المعز وآبائه، فقد نقل الداعي إدريس عماد الدين عن المعز أنّه قال مادحا النعمان: "**من أتى بعشر ما أتى به النعمان ضمنت له الجنة**" (الداعي، 1984، صفحة 49).

وهذه الروايات قد تجد طريقها إلى التصديق من بعض أهل المغرب وإفريقية وغيرهم قديما وحديثا والذين لم يتردد المعز بوصفهم بالحمير الجهّال قائلا: "**وقد ابتلانا الله برعي الحمير الجهّال، فإنا لم نزل نتلطف في هدايتهم ومسايرة أحوالهم إلى أن يختم لنا بالحسن والخروج من بين أظهرهم إلى أحمد حال**" (النعمان، 1996، صفحة 396).

وفي عصرنا الحالي فإنّ بعض المؤرخين لم يتردد في الدفاع عن عقائد الإسماعلية واتهام من يرميهم بالباطنية بالتجني والكذب عليهم، فهذا الدكتور محمد كامل حسين المهتم بتاريخ الدولة الفاطمية ومحقق الكثير من كتب القوم يقول مدافعا عنهم: "**إنّ خصوم الفاطميين أخذوا يحاربونهم بنفس سلاحهم، فطورا ينفون نسبهم إلى الرسول، وطورا آخر يصفون الأئمة بأنّهم يؤلهون أنفسهم ويقولون بالحلول والتناسخ وعلم الغيب، فلم يجد خصوم الفاطميين موبقة إلا رموا بها الفاطميين والعقائد الفاطمية، ولكننا إذا قرأنا كتب الفاطميين السرّية التي استطعنا الحصول عليها نرى عكس ما كتبه المؤرخون**" (النعمان، دون تاريخ، صفحة 20)، وردّا على هذا الكلام نقول إنّ ما نقلناه سابقا عن تقديس الأئمة الفاطميين الأربعة الأوائل إنّما نقلناه من كتاب مطبوع لإمام الإسماعيلية الأكبر القاضي النعمان، ولم ننقله من كتب أعداء الدعوة الفاطمية، ومن الطرائف أنّ النعمان نفسه مع كونه قاضي قضاة المعز لدين الله العبيدي لم يكن يعرف كثيرا عمّا كتب من كتب الباطن فضلا أن يعرفه أحد من غير الإسماعيلية (ظهير، دون تاريخ، صفحة 23)، ويصف النعمان تكتم الأئمة في أمر الدعوة الباطنية بالشديد والتي عبّر عنها بالعلم المأثور عن آباء المعز فيما أقامه من باطن علم الدين لأوليائه (النعمان، 1996، صفحة 343).

وممّا يجدر بنا نقله في هذا السياق ما ذكره إحسان إلهي ظهير وهو من المهتمين بدراسة الفكر الإسماعيلي حديثا عن كتب الظاهر والباطن ما نصّه: "**وأمّا كتب الظاهر فيكتبونها للعامة، ومن تعمّق وتفحّص وفتش ونقّب عرف وعلم يقينا بأنّ كاتبا واحدا من كتّاب الإسماعلية يكتب في الكتاب الظاهري شيئا وفي السرّي شيئا آخر**" (ظهير، دون تاريخ، صفحة 20)، ويظهر أنّ هذا الحكم لا ينطبق على القاضي النعمان تماما لا سيما في كتابه المجالس والمسايرات، فما نقلناه سابقا من هذا الكتاب عن مناقب الأئمة الفاطميين ورفعهم إلى مراتب الأولياء وادّعائهم معرفة الغيب وكراماتهم المزعومة وغير ذلك، ينقضه النعمان ويدّعي عكسه في مواضع

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

من كتابه هذا، فينقل عن المعز في أحد مجالسه أنّه وأباءه لا يدّعون النبوة والرسالة ولا يعلمون الغيب، ونسب هذا الأمر إلى دعاة هدفهم تشويه الدعوة (النعمان، 1996، صفحة 523)، والمعز نفسه تبرأ من بعض الأولياء الذين نسبوا إليه علم الغيب (النعمان، المجالس والمسايرات ، 1996، الصفحات 548-549)، وفي موضع آخر يذكر النعمان أنّ المعز لدين الله كان يحذّر من غلو المغالين من دعاته الذين هم في الحقيقة أعداء الدعوة (النعمان، 1996، الصفحات 419-420).

وهذا التناقض الواضح فيما أورده النعمان قد نجد له تفسيرا واضحا إذا أيقنا أنّ هذا الشخص كان باطنيا يؤمن بأنّ لكل قول ظاهر وباطن (النعمان، 1996، صفحة 86)، حينها يصحّ أن نقول أنّ ما ذكره من مناقب الأئمة لا سيما ما تعلق منه بعلمهم الغيب وما يحصل لهم من كرامات هي من علم الباطن الذي يتميّز به الأئمة دون غيرهم والذي ما كان له أن يذكره في كتابه أو ذكره بغير قصد، وهناك احتمال آخر أكثر ترجيحا عن سابقيه وهو أنّ النعمان ما كان يعتقد أنّ كتابه هذا سيصل إلى غير الإسماعيلية خاصة ممّن يصفهم بالعامة ويقصد بهم أهل السنة الذين لا يتقبلون الحكمة بحسب وصية المعز، فعندما كان النعمان يدّون أقوال المعز وأفعاله ويعرضها عليه، فيرتاح المعز ويأمره بالمواصلة على أن لا يعطي الكتاب عند إتمامه إلا لمن يصلح لتقبل الحكمة (النعمان، 1996، صفحة 297)، والكتاب اليوم أصبح متداولا بين الناس كلهم، والحكمة الحقيقية تقتضي أن ندرسه بحس نقدي ندرك من خلاله ما يمكن تصديقه وما لا يمكن تصديقه، وما هو حقيقة ناصعة وما هو خرافة واضحة، والمؤرخون قديما وحديثا بين هذا وذاك تتجاذبهم الأفكار والرؤى والمعتقدات والإيديولوجيات، ولا سلطان على الباحث المؤرخ إلا ما جاء به من أدلة تؤيد طرحه وفكره، وهذا ما حاولنا اتباعه في كتابة هذه الأسطر.

خاتمة

وأخيرا بعد هذا العرض يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

يعتبر القاضي النعمان من أهم الشخصيات العلمية الإسماعيلية في عهد الدولة الفاطمية الأول، فهو المنظر الأول والأهم للمذهب الإسماعيلي الشيعي.

لا يُعرف الشيء الكثير عن حياة القاضي النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية لا سيما العلمية منها، فلم تنقل المصادر التاريخية غير أخبار قليلة في هذا السياق.

للقاضي النعمان مؤلفات كثيرة منها كتاب المجالس والمسايرات الذي حضي بتزكية المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين، والكتاب مادته متنوعة من تاريخ وسيرة ذاتية وعقائد وغير ذلك.

تعتبر الشيعة الإسماعيلية الإمامة أهم عقيدة يجب على المسلم الإيمان بها وهي قضية أصولية عندهم، وقد غلوا فيها غلوا شديدا حيث اعتبروها أعظم قدرا وأفضل منزلة من النبوة والرسالة.

لقد أضفى القاضي النعمان على الأئمة الفاطميين طابعا أسطوريا ناسبا إليهم صفات تخرجهم عن حد البشرية، وذكر مناقب كثيرة لهم لا سيما أئمة الطور المغربي الذين عاصرهم.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يعتقد القاضي النعمان أنّ الأئمة يعلمون الغيب ذاكرا في كتابه المجالس والمسايرات أمثلة كثيرة، منها علم عبيد الله المهدي بقيام ثورة صاحب الحمار عند تأسيسه مدينة المهدية.

لم يذكر القاضي النعمان مناقب كثيرة لثاني الأئمة الفاطميين القائم، وقد يرجع ذلك لأنّ عهده تميّز بالاضطراب الكبير بعد اندلاع ثورة صاحب الحمار وعجزه عن القضاء عليها.

ذكر القاضي النعمان مناقب كثيرة للمنصور ثالث الخلفاء الفاطميين، وفي نقلها تأكيد لما يعتقده النعمان في الأئمة لا سيما نبوءاتهم الغيبية والتي غالبا ما تقع كما ذكروا.

حضي المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين بالنصيب الأكبر من المناقب المذكورة في كتاب المجالس والمسايرات، وهي لا تختلف في جوهرها عن مناقب آبائه وأجداده، وكلها تأكيد على سمو ورفعة المكانة التي وصل إليها المعز لدين الله.

أظهر القاضي النعمان تناقضا واضحا في كتابه المجالس والمسايرات، ففي سعيه لتعظيم أئمة الإسماعلية نسب إليهم مناقب كثيرة ومنها نبوءاتهم الغيبية الكثيرة، وفي الوقت ذلك نفى عنهم علم الغيب في الكتاب ذاته.

ولا يزال البحث في عقائد الإسماعيلية يعدّ من أصعب الأمور التي تواجه المؤرخين والباحثين، وذلك في ظل عدم قدرتهم على الوصول إلى الكثير من المصادر السرّية المحفوظة لدى هذه الطائفة، وقد يكشف لنا المستقبل عن بعضها أو جلّها، وحينها يمكن معرفة المزيد عن حقائق المذهب الإسماعيلي لا سيما علم الباطن الذي هو حكر على أئمتهم وخاصة خاصتهم.

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر

1. إدريس عماد الدين بن الحسن القرشي الداعي (ت872هـ/1468م)، (1984م)، **عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار" السبع السادس، أخبار الدولة الفاطمية"**، تحقيق: مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، الطبعة الثانية.
2. أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي (ت 874هـ/ 1470م)، (1992م)، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ج2.
3. شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن أحمد الكناني العسقلاني (ت852هـ/1449م)، (دون تاريخ)، **رفع الإصر عن قضاة مصر**، القاهرة، مكتبة الخانجي.
4. ابن حجر، (2002م)، **لسان الميزان**، بيروت، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ج8.
5. أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان (ت681هـ/1282م)، (دون تاريخ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق / إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج5.
6. أبو الفتح تاج الدين عبد الكريم بن أبي بكر أحمد المشهور بالشهر ستاني (ت548هـ/1153م)، (1993م)، **الملل والنحل**، تحقيق: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعود، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، ج1.
7. أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي (ت626هـ/1230م)، (1984م)، **أخبار ملوك بني عبيد**، تحقيق: جلول أحمد البدوي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
8. أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى المراكشي (ت بعد712هـ/1312م)، (1983م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الثالثة، ج1.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

9. عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي (ت1089هـ/1679م)، (1989م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دمشق–بيروت، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ج4.

10. القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيون التميمي المغربي (ت363هـ/974م)، (1996م)، **كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق: الحبيب الفقي وإبراهيم شنّوح ومحمد اليعلاوي، بيروت، دار المنتظر.

11. القاضي النعمان، (1983م)، **اختلاف أصول المذاهب**، تحقيق: مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، الطبعة الثالثة.

12. القاضي النعمان، (دون تاريخ)، **كتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة**، نشر وتحقيق: محمد كامل حسين، القاهرة، دار الفكر العربي.

13. القاضي النعمان، (1963م)، **دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام**، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، القاهرة، دار المعارف، ج1.

14. القاضي النعمان، (1986م)، **كتاب افتتاح الدعوة**، تحقيق: فرحات الدشراوي، تونس–الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

15. المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (ت470هـ/1087م)، (1949م)، **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تحقيق: محمد كامل حسين، القاهرة، دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى.

– المراجع

1. الزركلي خير الدين، (2002م)، **الأعلام**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ج8.

2. السلومي سليمان عبد الله، (2001م)، **أصول الإسماعلية**، الرياض، دار الفضيلة، الطبعة الأولى، ج1.

3. الطاهري محمد الهادي، (2011م)، **عقائد الباطنية في الإمامة والفقه والتأويل** عند القاضي النعمان، بيروت، دار الانتشار العربي، الطبعة الأولى.

4. ظهير إحسان إلهي، (دون تاريخ)، **الإسماعيلية تاريخ وعقائد**، لاهور باكستان، إدارة ترجمان السنة.

5. المجدوع إسماعيل بن عبد الرسول الأجيني، (1966م)، **فهرسة الكتب والرسائل ولمن هي من العلماء والأئمة والحدود الأفاضل**، تحقيق وتعليق: طينقي منزوي، طهران، منشورات مكتبة الأسدي.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)